الفصل الخامس

مأساة فرنسا

obeikandl.com

obeikandl.com

عندما أذعنا عدد الذين تم إنقاذهم من دنكرك، ساد البلاد شعور من الراحة والاطمئنان، لقد ساد شعور من الارتياح بعد فترة طويلة من القلق الذي سرعان ما تحول إلى نوع من الإحساس بالنصر، فإن إنقاذ ربع مليون جندي شاب من خيرة جنودنا يعتبر نصرًا عظيمًا بعد سنوات طويلة من الهزيمة، وقد عاد هؤلاء إلى الوطن وهم لا يحملون شيئًا سوى بنادقهم والحراب وبضع مئات من المدافع الرشاشة، وقد كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية، وكانوا على ثقة تامة من أنهم سيتغلبون على عدوهم إذا ما أتيحت لهم فرصة ثانية للاشتباك معه.

لكن معركة دنكرك كانت قد خسرتنا كل ما نملكه من معدات، لا سيما تلك التي أنتجتها معاملنا مؤخرًا، وأرسلت بها إلى ميدان المعركة في فرنسا، وستمضي عدة أشهر قبل أن نتمكن من إنتاج وتعويض تلك الخسارة الفادحة.

لكن العواطف الجياشة في الولايات المتحدة، وخاصة تلك التي كانت تتأجج في صدور القادة البارزين هناك، حتمت عليهم التفكير بالموضوع جديًا، وسرعان ما أصدر الرئيس الأميركي أوامره إلى وزارتي الحربية والبحرية، كما طلب الجنرال مارشال من نائبه إعداد قوائم بموجودات الجيش الأميركي من سلاح احتياطي، وفي خلال ثمان وأربعين ساعة كانت القوائم الكاملة جاهزة، وفي الحال وافق الجنرال مارشال عليها، وطلب إرسالها إلى بريطانيا وفرنسا، وتضمنت القائمة الأولى نصف مليون بندقية من مجموع مليوني بندقية يعود تاريخ صنعها إلى عامي ١٩١٧ و١٩١٨ وبقيت مختزنة حوالي عشرين عامًا، وقد أرسل مع كل بندقية ٢٥٠ طلقة، كما أرسل معها أيضًا تسعمائة مدفع من عيار (٧٥) ومليون قذيفة وثمانين ألف رشاش وأنواعًا أخرى من الأسلحة، وشرعت جميع مخازن الجيش الأميركي بتجميع الأسلحة وتجهيزها وشحنها، وقد وصل إلى الميناء في الحادي عشر من حزيران اثنتا عشرة باخرة بريطانية لتبدأ بنقل شحنات الأسلحة إلى بريطانيا وفرنسا.

لقد كان هذا العمل الذي قامت به أميركا عملاً رائعًا من أعمال الإيمان والقيادة، فقد حرمت نفسها من تلك الأعداد الهائلة من الأسلحة لترسلها إلى بلاد يعتبرها الكثيرون من أبناء البلاد أنها قد منيت بالهزيمة.

كانت لا تزال لدينا في فرنسا فرقة جبلية خاصة بقيت وراء السوم وكانت لا تزال في حالة ممتازة، كما كانت هناك فرقتنا المدرعة الأولى والوحيدة وكتيبة الدبابات اللتان أرسلتا إلى كاليه للمشاركة في عملية الإنقاذ، ولم يحل شهر حزيران حتى كانت الفرقة هذه قد خسرت أكثر من ثلثي رجالها، فصدرت الأوامر إليها بوجوب انسحابها إلى ما وراء نهر السين لإعادة تنظيمها، وفي نفس الوقت جمعنا تسعة أنواع من فرق المشاة التي لم تكن تملك سوى البنادق، أي أنها كانت شبه عزلاء.

وفي هذا الوقت بدأت المرحلة الأخيرة من معركة فرنسا، وبدأ هجوم ألماني جديد اتسم بالعنف والقوة خاصة المدرعات التي وفروها لهذه المعركة الفاصلة والتي تدفقت بمجموعها الآن على الجبهة الفرنسية التي كانت تترنح من شدة الضعف، وحاول الجيش الفرنسي المقاومة للحفاظ على حدود نهر السوم، لكن فرقتين ألمانيتين تمكنتا من اختراق صفوفه واندفعت نحو روان فعزلت جناح الجيش الفرنسي الأيسر والذي يضم فرقتنا الجبلية، عن بقية أجزاء الجيش، وصدرت الأوامر إلى الجنرال فورشون بوجوب الانسحاب باتجاه روان، لكن هذه الأوامر لم تنفذ بسبب بدء انحلال القيادة الفرنسية، فقدمنا عدة احتجاجات وبيانات إلى القيادة الفرنسية بهذا الشأن لكن دون جدوى ....

وتمكنت فرقتنا من التراجع بعد قتال مرير ضار باتجاه سان فاليري وهي تأمل بالجلاء عن طريق البحر، لكن الضباب الكثيف حال دون جلاءها، ووصل الألمان إلى الشواطئ الصخرية وسدت سبل النجاة أمام فرقنا الباسلة بعد أن أصبح الشاطئ تحت سيطرة رشاشاتهم، واستسلم اللواء الفرنسي وارتفعت الرايات البيضاء فوق البلدة، فاضطرت فرقتنا الجبلية الباسلة إلى الاستسلام ووقع ثمانية آلاف بريطاني وأربعة آلاف فرنسي في الأسر وكان قائد الفرقة الألمانية المدرعة التي أسرتهم، هو الجنرال رومل بالذات.

❖ ❖ ❖

تلقيت في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الحادي عشر من حزيران رسالة من المسيو رينو يطلب فيها مقابلتي في «بريار» على مقربة من أورلبان بعد أن انتقلت العاصمة من باريس، فاستقلت طائرتي بعد الظهر وسافرت يصحبني المستر إيدن وزير الحربية في ذاك

الوقت والجنرال ديل رئيس الأركان والجنرال إيسماي ، وكانت رحلتي هذه هي الرحلة الرابعة إلى فرنسا .

وبدأنا الاجتماع في تمام الساعة السابعة ، فطلبت من الحكومة الفرنسية الاستمرار في الدفاع عن باريس وقلت لهم مؤكدًا ضرورة بدء حرب الشوارع والقتال من بيت إلى بيت لاستنزاف قوة الجيش الغازي ، وقد ذكرت المارشال بيتان بتلك الليالي التي قضيناها سوية في قطاره في مدينة «بوفيه» بعد الكارثة التي حلت بالجيش البريطاني في عام ١٩١٨ ، وذكرته كيف تمكن من إنقاذ الوضع في عملية مشابهة ، وقد ذكرت المارشال بأقوال كليمنصو حين صرح بقوله : «سأقاتل أمام باريس ، وفي داخلها ، ووراءها» وقد أجابني المارشال بيتان بكل اعتزاز وهدوء أنه كان تحت تصرفه في تلك الأيام قوات تبلغ بعددها ستين فرقة ، أما الآن فليس لديه أي منها ، كما ذكرني أن الفرق البريطانية كانت تبلغ بعددها الستين فرقة في تلك الأيام أيضًا ، كما أضاف أن تهديد مدينة باريس لن يغير شيئًا من النتيجة المرتقبة...

وعرض علينا الجنرال ويغان الوضع العسكري بالنسبة إلى المعركة «المائعة» الدائرة على مقربة منا ، وأثنى ثناء كبيرًا على الجيش الفرنسي وبسالته ، وطالبنا بإرسال نجدات عسكرية عاجلة وفي طليعة مطالبه إرسال جميع ما لدينا من أسراب المقاتلات ، واستطرد قائلاً : «أن هذه اللحظة حاسمة ، لذلك لا يجوز الإبقاء على أي سرب من الطائرات المقاتلة في إنكلترا» وقد أجبته على الفور بقولي : « إن هذه اللحظة ليست باللحظة الحاسمة وستأتي تلك اللحظة حين يقوم هتلر بهجومه الجوي على بريطانيا العظمى ، وإذا تمكنا من الاحتفاظ بسيطرتنا على الجو ومن إبقائنا على البحار مفتوحة ، وهذا ما سنقدر عليه حتمًا ، فعندئذ سنعود لاستعادة كل ما فقدتموه » ، لقد كان لدينا خمسة وعشرون سربًا من الطائرات ، وقد قررنا الاحتفاظ بها ولن نفرط بسرب واحد منها مهما كلف الأمر ، فنحن قد قررنا الاستمرار في الحرب إلى أجل غير معلوم ، وأما التخلي عن هذه الأسراب فمعناه القضاء على أملنا الوحيد في الحياة...

وبعد قليل وصل الجنرال جورج الذي اطلع على خلاصة حديثنا السابق ، وبعد أن عرض ملخصًا للوضع القائم في الجبهة ، أكد ضرورة ما سبق وطلبته البدء في حرب

الشوارع وحرب العصابات ، فالجيش الألماني ليس بالقوة التي يبدو عليها حين مجابهته بجيوش مماثلة ، فلو حاول كل لواء من الجيش الفرنسي الاصطدام مع لواء مماثل من الجيش الألماني ، واستعمل في اصطدامه كل ما يملكه الجيش الفرنسي من حيوية ونشاط لتمكن من التغلب على عدوه أو عرقلة تقدمه السريع على الأقل ، وكان ردهم المتخاذل أن الأوضاع أصبحت مخيفة على الطرق التي امتلأت بأفواج اللاجئين الذين تطاردهم نيران رشاشات الطائرات العدوة ، وألحقوا هذا ببيانات عن حالة السكان وعن انهيار الجهاز الحكومي والسيطرة العسكرية، وقال الجنرال ويغان بأنهم قد يضطرون إلى طلب الهدنة ، وقد أجبته بقولي : «إذا وجدت فرنسا ، في هذه المحنة ، أنه من الخير لها استسلام جيشها فعليها أن تبادر إلى إعلان ذلك ولا تتردد بسببنا ، فنحن قد صممنا على المضي في حربنا وعلى القتال إلى الأبد، إلى الأبد والأبد » ، وعندما أعدت لهم قولي أن على الجيش الفرنسي أن يستمر في القتال أينما كان وحيثما استطاع لإنهاك قوة مائة فرقة ألمانية ، أجابني الجنرال ويغان على الفور: «حتى لو قاتلنا ، فسيبقى لديهم مائة فرقة أخرى تقوم بمهاجمتكم واحتلال بلادكم ، وماذا تستطيعون أن تعملوه بعد ذلك ؟ وأجبته : «إن مستشاريّ العسكريين يرون أن طريقة صد أي هجوم ألماني على بريطانيا هي في محاولة إغراق أكبر عدد ممكن منهم في البحر ، أما الباقي فيمكننا تحطيمهم على الشاطئ» .